Strategy WATCH
المرصد الاستراتيجي

في أعقاب الغوطة:
هل انتصر بشار الأسد وحلفاؤه؟

دراسات وبحوث

في ظل الاختراقات التي تحققت للنظام في الغوطة الشرقية؛ رأى محللون عسكريون أن القول بانتصار بشار الأسد بعيد عن الواقع إلى حد كبير، إذ تبسط تركيا سيطرتها على عفرين وتعمل على وصل مناطق "درع الفرات" مع "غصن الزيتون" لإنشاء قطاع يخضع لسيطرتها غربي الفرات، في حين يسيطر الأكراد وحلفاؤهم الأمريكيون على مناطق شرقي الفرات، بما في ذلك محافظات الرقة والحسكة ودير الزور، مع بقاء فلول تنظيم "داعش" وبعض القوات الموالية للنظام في جيوب محدودة.

ووفقاً لدراسة مشرها موقع موقع (Strategy Page) فإن الأسد قتل نحو نصف مليون نسمة، ودفع بملايين المدنيين المناهضين له إلى خارج البلاد، ودمر مناطقهم بصورة ممنهجة، وذلك بهدف تحويل مناطق اللجوء إلى منفى دائم لمعارضيه لتأمين حكمه، لكنه يوقن في مقابل ذلك أنه خسر ثلث الأراضي السورية ولن يتمكن من استردادها في المستقبل المنظور.

وفي ظل تنامي خسائر النظام على مستوى المقاتلين وتناقص عدد السكان؛ تتضاءل فرص تحقيق السلام، حيث تمر الوساطة الأممية في جنيف بحالة من الجمود، في حين يجتمع الروس والإيرانيون والأتراك على الرغم من مقاطعة الولايات المتحدة تلك الاجتماعات بعد أن كانت ترسل ممثلين عنها، وامتناع الجسد الرئيس للمعارضة عن الحضور باستثناء بعض الشخصيات "المحايدة" وتلك الموالية للنظام، ويمكن ملاحظة تنامي الخلافات بين طهران وأنقرة وموسكو حول طبيعة السلام المنشود وتباين الرؤى حول السبيل لتحقيقه.

الارتباك الروسي

وتبدو موسكو غارقة أكثر من أي وقت مضى في أوحال الأزمة السورية، حيث يواجه الرئيس الروسي فلاديمير بوتين تبعات إخفاق وزير خارجيته في "مؤتمر سوتشي"، وتدهور علاقات وزير دفاعه مع تل أبيب جنوب سوريا، وانهيار مشروع "خفض التوتر" في الشمال، وفشل مقامرة شركاته الأمنية ضد الولايات المتحدة في الشرق، وتخبط حلفائه في عملية الغوطة الشرقية التي سببت له حرجاً دبلوماسياً وإنسانياً غير مسبوق.

وتتجلي الحقيقة المرة لبوتين في أن سوريا بشكلها الحالي غير قابلة للحكم، وأن قواته تغرق أكثر فأكثر في مستنقع الحرب، حيث خسر في شرقي البلاد أكثر من 300 مرتزق روسي بين قتيل وجريح، في حين بات اعتماد نظام الأسد شبه كامل على الدعم الإيراني، مع تزايد عجزه عن تحقيق أية مكاسب على الأرض.

وكان من المفترض أن يُعلن بوتين في "مؤتمر سوتشي" عن نصر دبلوماسي يتزامن مع إعلان انتصاره العسكري، ويعمد من خلالها إلى تهميش الوساطة الأممية وتثبيت مكتسبات موسكو على الأرض؛ إلا إن المؤتمر مثَّل إحراجاً كبيراً للدبلوماسية الروسية نتيجة العنف الذي وصل درجاته القصوى في إدلب والغوطة الشرقية، بحيث تحولت الدول الضامنة لخفض التوتر إلى دول متورطة في إذكاء الصراع وارتكاب جرائم مروعة بحق المدنيين.

وتسود مشاعر القلق في الخارجية الروسية من قيام تحالف الكرملين-وزارة الدفاع بوأد جميع المكتسبات التي تم تحقيقها مع أنقرة وطهران في اجتماعات أستانة، والتنصل من التوافقات التي تم التوصل إليها مع الوسيط الأممي بجنيف، فضلاً عن إلغاء الاتفاقيات المبرمة مع واشنطن وتل أبيب، الأمر الذي سيبدد الدبلوماسية الروسية برمتها ويغرق موسكو في مستنقع المواجهات العسكرية مع نفس القوى التي كانت تبحث عن سبل التوافق معها للتوصل إلى صيغة حل مشترك.

ورأت دراسة نشرها المجلس الأوروبي للعلاقات الخارجية أن الرئيس الروسي فلاديمير بوتين يلعب لعبة لا نهاية لها في المستقبل المنظور، حيث يعمل جاهداً على تثبيت ديكتاتور لم يعد قادراً على استعادة حكمه أو تثبيت شرعيته، ويجد نفسه منهكاً في أتون تنافس إقليمي ودولي يصعب احتواؤه.

ويجد بوتين صعوبة في صد محاولات واشنطن إنشاء منطقة نفوذ خاص بها شرقي سوريا، في حين تعمل كل من أنقرة وتل أبيب على تأمين حدودهما، وتوطن طهران نفسها لمواجهة متوقعة مع إسرائيل جنوب البلاد.

ويبدو أن روسيا أدركت متأخرة أنه من السهل الانجرار إلى نزاعات الشرق الأوسط لكنه من الصعب الخروج منها، إذ تبدو للعيان حالة الفوضى النابعة من كثرة اللاعبين والوكلاء، الأمر الذي يدفع بالروس للزج بالمزيد من قواتهم بدل سحبها.

في هذه الأثناء يتوسع الأمريكيون وحلفاؤهم في "قوات سوريا الديمقراطية" جنوب شرق دير الزور، حيث يعززون تحصيناتهم، وخاصة في القاعدة الأمريكية الجديدة بحقل العمر النفطي، في حين يتجمع الروس والإيرانيون وقوات الأسد على بعد خمس كيلومترات عن القاعدة الأمريكية الجديدة بغية السيطرة عليها، وذلك في المنطقة التي وقعت فيها معركة 7 فبراير حينما تقدمت القوات الروسية وقوات النظام بشكل مفاجيء مما دفع الأمريكيين إلى مواجهتها بقوة نارية هائلة، نتج عنها خسائر فادحة أفضت إلى تعثر عمليات التجنيد، وإثارة الصخب في فضاء الإنترنت الروسي حول الثأر من الأمريكيين، وتعالي المطالب الشعبية بمساءلة الحكومة حول جدوى سياساتها المتبعة في سوريا، إذ يبدو أن الإنكار الروسي لحجم الخسائر لم يعد ينفع مع غياب الخطة الرسمية للتعامل مع تنامي الغضب الشعبي.

ويسود القلق في الأوساط العسكرية الروسية من أن مواجهات أخرى مع القوات الأمريكية في سوريا ستحمل في طياتها خطراً كبيراً على مقاتليهم حتى في حال وجود إسناد جوي لهم بسبب التفوق الأمريكي الجوي ووجود قوات برية ووجود حلفاء أقوياء.

وعلى الصعيد نفسه؛ تجد الشركات الأمنية الروسية صعوبة في تجنيد المزيد من المتعاقدين للذهاب إلى سوريا في ظل الكشف عن مقتل نحو 400 منهم في الفترة الماضية، الأمر الذي يُصعّب مهمة الكرملين في سوريا، حيث تعتمد القوات الروسية على المرتزقة لحماية قواعدها العسكرية وعلى المواقع الإستراتيجية التي يسيطر عليها النظام وفي حماية كبار مسؤولي حكومة الأسد، وغالباً ما تضم وحدات المرتزقة بعض الجنود الروس المرافقين لإعطاء الإحداثيات للمدفعية وتوجيه الغارات الجوية أرضياً وللتواصل مع مراكز العمليات الروسية.

وفي مقابل الارتباك العسكري الروسي؛ تستمر القوات الأمريكية في تشييد قواعد عسكرية صغيرة حول حقول "الجفرة" و"كونيكو"، الأمر الذي يفوت على النظام فرصة الاستفادة من الموارد السخية التي كانت طائفته تتحكم بها في مرحلة ما قبل الحرب، خاصة وأن الروس قد أبرموا عقوداً من النظام لإعادة تأهيل وتشغيل الحقول النفطية التي كانوا يتوقعون أنها ستُدر ما لايقل عن 30 مليار دولار، لكن الأمريكيون لا يسمحون لهم بذلك في الوقت الحالي.

الشمال الغربي في قبضة أردوغان

أما في منطقة غربي الفرات؛ فقد نجحت تركيا في بسط سطيرتها على عفرين شمال غربي البلاد، ويبدو أنها ستقف في مواجهة القوات الأمريكية التي ترغب في بقاء منبج تحت سيطرة ميلشيا "قسد"، في حين عمدت إيران والميلشيات الموالية لها إلى دعم وحدات حماية الشعب الكردية في مواجهة القوات التركية، وأعلنوا أن عفرين هي جزء من سوريا.

ويتفق الكرد والإيرانيون ونظام الأسد على ضرورة إبقاء الأتراك خارج سوريا لكن الهجوم التركي، الذي تم شنه بمساعدة فصائل الجيس السوري الحر على خمسة محاور، كان كاسحاً، حيث تم قتل وأسر نحو أربعة آلاف مقاتل كردي خلال حملة "غصن الزيتون"، وشملت الخسائر الكردية فقدان عدد من قادة حزب العمال الكردستاني.

وعلى الرغم من الرؤية التقليدية الشائعة لدى الأكراد بأن خسارة عفرين هي جزء من مسلسل الخيانة الغربية "لقضيتهم"؛ إلا إنهم يلقون باللوم على روسيا التي فككت ست نقاط مراقبة كانت قد أنشأتها حول مدينة عفرين ونكثت بوعدودها في حماية الوحدات الكردية، وفتحت المجال الجوي للأتراك حتى يتموا عملية السيطرة عليها.

وفي مقابل العمليات الجارية غرب الفرات، يشعر أكراد شرقي الفرات بالأمن نظراً لوجود القوات الأمريكية التي تقوم بتدريبهم وتسليحهم وإسنادهم بالدعم الجوي، وتُبعد خطر الأتراك والروس والإيرانيين والنظام عنهم، وقد أعلن الأمريكيون أنهم باقون في سوريا لمواجهة "داعش" ومنعها من إنشاء ملاذات آمنة لها.

تنامي القلق في إيران

ويتنامى القلق الرسمي في طهران من السياسية الروسية في استبعاد مشاركة الميليشيات الإيرانية والعراقية التي وصلت إلى محيط الغوطة وأطراف دمشق، حيث أمر الضباط الروس قادة الميليشيات بالبقاء على مسافة تفصلهم عن أي نقطة اشتباك.

وتعكس وسائل الإعلام الإيرانية مخاوف طهران واهتزاز ثقتها بالنوايا الروسية وسط تكهنات بأن موسكو تتجاهل طهران في سوريا، حيث تتنامى الشكوك الإيرانية من دور روسيا بسوريا، وما يُنظر إليه على أنه محاولات روسية لتجاوز إيران التي دفعت ثمناً باهظاً لإبقاء بشار الأسد، وأشار موقع "تانباك" الإخباري المحافظ إلى أنه "بناء على اتفاق بين روسيا وسوريا، فإن النظام تخلى جزئياً، عن إيران والشركات الإيرانية في عملية إعادة الإعمار. وقد تم تأسيس اتحادات بين سوريا وروسيا في عدد من القطاعات، وإذا أرادت إيران الانضمام إلى عملية إعادة الإعمار، فينبغي عليها أن تتحدث قبل ذلك إلى الروس. وهذه ليست تكهنات وإنما هي قضية نوقشت في الدوائر الحكومية". وأضاف الموقع: "لا يرغب أنصار الروس بإيران في الحديث عن كسر الوعود التي قطعها الروس وضرباتهم لمصالح إيران الوطنية... لقد تركنا الروس عندما تم تمرير قرارات الأمم المتحدة ضد إيران ولم تقدم إلينا أنظمة الدفاع عندما كنا في حاجة إليها، ويقومون الآن بجني ثمار الجهود الإيرانية في سوريا".

ووفقاً لصحيفة "قانون" الإصلاحية، فقد شعر الرئيس حسن روحاني بخسارة السوق السورية قبل أسابيع قليلة من الإعلان عن نهاية الحرب على"تنظيم الدولة"، مما دفعه إلى الاتصال بالأسد مؤكداً: "إن جمهورية إيران مستعدة للمشاركة في عملية إعادة الإعمار"، ورأت الصحيفة أنه: "لا ينبغي أن نسمح لبشار الأسد أو أي شخص آخر يحاول منع إيران من المشاركة في عملية إعادة الإعمار، وهذا لأن جزءاً من المصلحة الوطنية مرتبط بالقضايا الاقتصادية والمالية".

وتؤكد مصادر ميدانية أن المصالح الإيرانية قد بدأت تصطدم بالامتيازات التي منحها النظام لروسيا فيما يتعلق بحقول الغاز والنفط ومناجم الفوسفات، حيث كانت إيران ترغب بالحصول على حقوق التنقيب عن النفط والغاز في المنطقة الممتدة من جنوب شاطئ طرطوس إلى محاذاة مدينة بانياس بالإضافة إلى حق التنقيب في حقل قارة في حمص، مما أدى إلى اندلاع الصراع بين طهران وموسكو، ففي الوقت الذي تتولى فيه

شركات روسية تطوير مناجم الفوسفات بخنيفيس في ريف تدمر؛ زار رئيس وزراء النظام عماد خميس طهران، ومنحها الحق في استثمار مناجم الفوسفات، واتفق الطرفان حينها على تسديد الديون، عبر منح إيران الفوسفات السوري، وتصدير الإنتاج إلى طهران، لكن حكومة النظام أبرمت في المقابل اتفاقيات مع شركات روسية من أجل تطوير مناجم خنيفيس، ودخلت روسيا خط المنافسة من خلال شركة "ستروي ترانس غاز" التي يملك فيها الملياردير الروسي غينادي تيموشينكو الحصة الأكبر، الأمر الذي أنهى الحلم الإيراني بعد بدء الشركة فعلياً بتنفيذ أعمال الصيانة وتقديم خدمات الحماية والإنتاج والنقل إلى المرافئ للتصدير.

وتتحدث المصادر عن لجوء الشركات الروسية إلى "قوات النمر" لتهديد الشركات الإيرانية وإبعادها عن حقول الفوسفات، حيث نفذت هذه القوات تهديدها في إحدى الحالات وقصفت حمولة خرجت من المناجم، ثم شنت هجوماً واستولت على المناجم بالقوة وطردت الميليشيات الإيرانية منها.

تدهور الموقف في دمشق

أما في دمشق فقد رأت صحيفة "نيورك تايمز" أن: "مشكلة روسيا في سوريا هي رئيس النظام بشار الأسد"، وكشفت أن مسؤولاً بارزاً في الكرملين جلس إلى الأسد، ووصف المنافع التي يمكن أن تحصل عليها موسكو لو استطاعت تحقيق تسوية سياسية في سوريا وإعادة بنائها، إلا أن الأسد قاطع المسؤول الروسي، متسائلاً عن السبب الذي يدعو روسيا للحديث عن حل سياسي في وقت تقترب فيه الحكومة من تحقيق النصر!

وبعد عامين ونصف العام من التدخل الروسي لدعم الأسد، فإن "الرئيس الروسي فلاديمير بوتين يجد نفسه متورطاً في سوريا وغير قادر على حل الأزمة، رغم إعلانه إنجاز المهمة في ثلاث مناسبات، حيث تكمن المعضلة الأساسية في ربط موسكو مغامرتها في سوريا بمصير الأسد، من دون أن يكون لديها أي مجال للمناورة، فلا يستطيع بوتين سحب قواته، أو الدفع باتجاه حل سياسي في سوريا، بشكل يمكن معه تفادي انهيار النظام وتعريض سمعة بوتين ومكانته للخطر.

وبناء على هذه المعضلة؛ فإن الحرب تبدو مستمرة من دون أن تعلم موسكو نتائجها، وباعتبارها اللاعب الخارجي الأقوى، فإن روسيا تتحمل مسؤولية استمرار الأزمة، دون أن يكون لدى بشار القدرة على البقاء في الحكم دون دعم عسكري روسي مكثف.

وبدت مشاعر الإحباط الروسي من سياسات النظام واضحة في اجتماع عُقد بموسكو نهاية فبراير الماضي، حيث افتتح وزير الخارجية، سيرغي لافروف، اللقاء الذي استمر ليومين في نادي "فالداي" للحوار، الذي يُعدَ من أهم المنابر الروسية للسياسة الخارجية، وفي الوقت الذي أشاد فيه بجهود بلاده للتوصل إلى تسوية للحرب، إلا إنه رأى أن الحكومة السورية لم تظهر أي اهتمام بذلك، حيث حذفت مستشارة رئيس النظام بثينة شعبان من خطابها أي ذكر لكلمة التسوية السياسية، وبدلاً من ذلك قالت إن دمشق ستعلن "النصر النهائي" قريباً، الأمر الذي دفع مسؤولين روس للتعبير عن امتعاضهم وانتقاد موقف النظام.

وكانت صفحة "القناة المركزية لقاعدة حميميم المركزية" في موقع التواصل الاجتماعي قد أثارت سخط مؤيدي النظام بعد أن كشفت أن بشاراً ما كان ليخرج من مخبئه في دمشق لولا تأمين حماية روسية له، مؤكدةً أن سلاح الجو الروسي أمّن: "زيارة رسمية للرئيس السوري بشار الأسد إلى منطقة الغوطة الشرقية، بعد تحرير ما يزيد عن 80% من سيطرة التنظيمات المتطرفة عليها وذلك برفقة القوات الحكومية البرية والجوية".

وعادت الصفحة لتقول في منشور آخر: "أبدى العديد من المقاتلين في القوات الحكومية استياءهم إزاء تصريح القناة المركزية لقاعدة حميميم العسكرية حول المساهمة الروسية في القضاء على الإرهاب في الغوطة الشرقية وتأمين تحرك القوات الصديقة في المنطقة"، وأضافت: "نأسف لسماع ذلك، فقد عملت مجموعة القوات الروسية جويا وبرياً على دعم القوات الحكومية خلال المعارك التي تم تحقيق النصر فيها خلال فترة وجيزة من الزمن وقدم العسكريون أرواحهم لقاء ذلك".

وأظهرت مقاطع فيديو مجموعة من المرتزقة الروس يحيطون ببشار، وهم يحاولون منع عناصره من الاقتراب منه ومنهم ضباط في النظام، مما يؤكد عدم ثقة الروس بقوات بشار.

ويأتي السخط الروسي من أداء بشار الأسد نتيجة تقارير مقلقة حول الخسائر الفادحة التي تكبدتها قوات النظام في المعارك الأخيرة بالغوطة الشرقية، حيث نشرت مواقع إعلامية موالية للنظام (الإثنين 20 مارس 2018) أسماء 545 من عناصر وضباط النظام والقوات الروسية الذين قتلوا خلال الأشهر الثلاثة الماضية، وخاصة في معارك الغوطة التي

شهدت تدمير 6 دبابات وإسقاط طائرة مروحية بصاروخ من منظومة "أوسا"، بالإضافة إلى إسقاط مقاتلة "سوخوي 24"، واغتنام المعارضة دبابةT72 ، وعربةBMB ، وأسلحة وذخائر متنوعة، وتم توثيق مقتل 50 ضابطاً منذ يناير وحتى مطلع مارس الجاري خلال مشاركتهم في المعارك ضد الثوار، وخاصة في جبهات القتال بالغوطة الشرقية، حيث لقي نحو 80 عنصراً من الحرس الجمهوري مصرعهم (19 مارس) أثناء محاولة اقتحام فاشلة بإحدى الجبهات.

في هذه الأثناء نعت مصادر "حزب الله" مقتل مسؤول الهندسة في الحزب (19 مارس) علي الرضا حسين ترحيني، "أثناء أداء الواجب المقدس في سوريا"، دون التطرق إلى المكان الذي قتل فيه، ويرجح أن يكون مقتله في كمين شرقي درعا، بالإضافة إلى مقتل قائد كتيبة "فرسان زينب" نصرالله محمد فهدة، وإعلان حركة "النجباء" العراقية مقتل قياديين اثنيين هما: دريد شاكر حسن الساعدي وحسن كامل السعدي خلال العمليات في سوريا.

كما أعلنت مليشيا "الحرس القومي العربي" مقتل عدد من عناصرها في الغوطة الشرقية، خلال المعارك التي تخوضها إلى جانب النظام، وكانت المليشيا قد أعلنت مشاركتها إلى جانب قوات النظام في معارك إدارة المركبات بمدينة حرستا، وتتكون من عناصر فلسطينية مدعومة من إيران يقودها أسعد حمود الحاج ذو الفقار، وتضم مرتزقة عرب من مصر، والجزائر، وتونس، وفلسطين، ولبنان.

وكشفت حسابات إيرانية في مواقع التواصل الاجتماعي عن مقتل العشرات من عناصر ميليشيا "فاطميون" الإيرانية وفقدان جثثهم في سوريا خلال الشهر الجاري، الأمر الذي دفع الملالي إلى إقامة "جنازة رمزية" بتوابيت فارغة، حيث تداول الناشطون 51 اسماً لقتلى الميليشيا الأفغانية التي تقاتل إلى جانب نظام الأسد في سوريا، موثقين الأسماء بصور من مراسم تشييع القتلى بالصناديق الفارغة.

وكان موقع "Fort Russ News" الروسي قد أشار (11 مارس 2018) إلى تعرض قاعدة حميميم لهجوم جديد بواسطة طائرة مسيرة آلياً، مؤكداً أن: "أنظمة الدفاع الجوية الروسية تمكنت من إيقاف الطائرة قبل أن تصل إلى هدفها"، ويأتي ذلك في أعقاب هجوم تعرضت له القاعدة من قبل سرب من الطائرات الآلية أدى إلى وقوع خسائر فادحة في المقاتلات الرابضة، مما دفع وزارة الدفاع الروسي للاعتراف بجزء من الخسائر بعد أن حاولت التكتم على الهجوم.

في هذه الأثناء قتل المزيد من المرتزقة الروس (22 مارس 2018) إثر غارة جوية لقوات التحالف الدولي على قوات النظام والميلشيات التي حاولت التقدم إلى مناطق قسد" بريف ديرالزور الشرقي، وهو الهجوم الثاني من نوعه في المنطقة خلال أسابيع، كما أسفر الهجوم عن تدمير عدد كبير من الآليات الثقيلة، بينها دبابات ومدرعات.

وفي ظل تنامي فوضى الصراع الإقليمي والدولي، تستمر الأوضاع في سوريا بالتدهور، حيث تم تصنيف البلاد في ذيل قائمة مؤشر السعادة التي تنشرها الأمم المتحدة، حيث حلت سوريا في المرتبة 150 من أصل 156 بلداً.